

# الوجود الآثاري والتاريخي لحرفة الطوب الأحمر في منطقة الجريف شرق

الامين العام للمجلس القومي للتراث الثقافي وترقية اللغات  
القومية - السودان

د. أسعد عبد الرحمن عوض الله

## مستخلص:

تلقي الورقة الضوء على تاريخ حرفة الطوب الأحمر في منطقة الجريف شرق وفي السودان بشكل عام وتبين أن هذه الحرفة بدأت في السودان منذ فترة حضارة كرمة بموقع مدينة كرمة الحالية غرب ما يعرف بالدفوفة الغربية، وهذه هي أول إشارة لوجود الطوب الأحمر على امتداد وادي النيل بالدليل الآثاري المتوفر في السجل الأثري، وربما تكون قد بدأت قبل هذا التاريخ، واستمر إنتاج الطوب الأحمر وكذلك استخدامه في البناء بعد فترة حضارة كرمة خلال الفترات التاريخية المتعاقبة حتى فترة الحضارة المروية، وإلى يومنا هذا حيث بدأ الاستخدام والانتشار الحقيقي للطوب الأحمر واستخدامه في البناء إبان الفترة المروية، وستتطرق في هذه الورقة بإلقاء الضوء على بعض المواقع و المباني الأثرية التي تعود لتلك الفترة، والتي استخدم فيها الطوب الأحمر في البناء؛ وذلك لأن الحضارة المروية من أعظم الحضارات السودانية ولها امتدادها على طول وادي النيل، وتشمل مواقع داخل منطقة الجريف شرق والمناطق المجاورة لها، وتوضح الدلائل الأثرية استخدام الطوب في هذه المواقع بالمنطقة، وتتبع الوجود الآثاري والتاريخي لهذه الحرفة عبر الفترات التاريخية المختلفة في تاريخ السودان القديم من خلال الأدلة الأثرية المتوفرة في منطقة الجريف والتي نجد فيها أقدم دليل يعود إلى فترة الحضارة المروية وتليها الفترة المسيحية وبعدها فترة دولة الفونج، ومن خلال هذه الفترات نجد بقايا الطوب الأحمر في المقابر المروية والمسيحية وفي قباب الأولياء والصالحين في فترة الفونج، وكذلك استمرت هذه الحرفة إبان فترة الحكم التركي في السودان وفي فترة الاستعمار الإنجليزي المصري حيث بنيت به عدد من المؤسسات الحكومية مثل القصر الجمهوري وجامعة الخرطوم والنقل النهري.

الكلمات المفتاحية: الطوب الأحمر ، الجريف شرق ، كرمة - مروى ، الفونج.

## The Archaeological and Historical presence of the Red Brick Craft in the eastern Al-Jeraif area.

Dr. Asaad Abd Elrahman Awadallah Abd Elrahman

### Abstract:

The paper sheds light on the history of the red brick craft in the Jeraif East area and in Sudan in general, and shows that this craft began in Sudan during the Kerma civilization period at the site of the current city of Kerma, west of what is known as Western Dafufa. This is the first indication of the presence of red bricks along the Nile Valley with

archaeological evidence available in the archaeological record, and it may have begun before this date. The production of red bricks and their use in construction continued after the Kerma civilization period during successive historical periods until the Meroitic civilization period, and to this day, when the real use and spread of red bricks and their use in construction began during the Meroitic period. In this paper, we will shed light on some of the archaeological sites and buildings dating back to that period, in which red bricks were used in construction. This is because the Meroitic civilization is one of the greatest Sudanese civilizations and extends along the Nile Valley, including sites within the Al- Jeraif East area and the surrounding areas. Archaeological evidence shows the use of bricks in these sites in the area, and traces the archaeological and historical presence of this craft across the different historical periods in the history of ancient Sudan through the archaeological evidence available in the Al- Jeraif area, in which we find the oldest evidence dating back to the Meroitic civilization period, followed by the Christian period and then the Funj state period. Through these periods, we find remains of red bricks in the Meroitic and Christian cemeteries and in the domes of saints and righteous people in the Funj period. This craft also continued during the period of Turkish rule in Sudan and during the period of British-Egyptian colonialism, where a number of government institutions were built with it, such as the Republican Palace, the University of Khartoum, and river transport.

**Keywords:** Red brick - East Jeraif - Kerma - Meroe - Funj.

### مقدمة:

في هذا المقال سنتتبع تاريخ حرفة الطوب الأحمر في الحضارة السودانية، والتي بدأت منذ فترة كرمة، وتعتبر البداية الأولى لهذه الحرفة في السودان، كما نركز أيضاً على فترة الحضارة المروية التي انتشرت فيها هذه الحرفة، وذلك بذكر أمثلة لبعض المواقع الأثرية التي استخدم فيها الطوب الأحمر كمادة للبناء، ثم ندلف إلى الفترات التاريخية المتعاقبة على منطقة الجريف شرق والتي استخدم فيها الطوب الأحمر كمادة للبناء منذ فترة الحضارة المروية والفترة المسيحية إلى الفترة الإسلامية، وهذه الفترات التاريخية المختلفة والمتعاقبة تؤكد الوجود الأثري للطوب الأحمر بمنطقة الجريف شرق، وتوضح أيضاً مدى العمق التاريخي لهذه الحرفة، وتلمس هذا الجانب التاريخي نوضح أيضاً قدم منطقة الجريف شرق ونشأتها وتاريخها وتتبع ذلك خلال تلك الفترات والفترات التاريخية الحديثة، والتي انتشر فيها استخدام الطوب الأحمر بالمنطقة.

## حرفة الطوب الأحمر في السودان القديم:

بدأت حرفة الطوب الأحمر في السودان منذ فترة حضارة كرمة بموقع مدينة كرمة الحالية غرب ما يعرف بالدفوفة الغربية وتعود تلك الفترة إلى ما يعرف بحضارة كرمة الكلاسيكية (1750 - 1500 ق.م)<sup>(1)</sup>. أثناء فترة كرمة الكلاسيكية عمَّ استعمال الطوب المحروق، حيث شيدت به أبراج مدورة وغطت به جدران مباني أخرى مهمة، تقوية لها بزيادة سمكها، أو إمعاناً في زينتها، وغدت المنازل عالية جداً وسطحت سقوفها<sup>(2)</sup>.

يتجاذب تياران صناعة البناء بكرمة، الأول يمثل البناء بالأخشاب كأكوخ دائرية أو مستطيلة معروفة ببلاد النوبة منذ فترات ما قبل التاريخ، وفي الفترات التاريخية والثاني البناء بالطوب - لبن كان أو محروق - وكثيراً ما يشاهد الأثنان معاً في مبنى واحد الشيء الذي يتولد منه طراز معماري مركب<sup>(3)</sup>.

## وفي الدفوفة الغربية تحديداً يقول شارلس بونيه:

«أثناء الحفريات أمكننا ملاحظة استعمال الطوب المحروق في بناء الجدار القديم وهذا بلا شك - رغم بساطته - أول إشارة لاستعمال الطوب المحروق في تاريخ وادي النيل وبطريقة منتظمة، حيث غدت مادة البناء خلال فترة كرمة الكلاسيكية»<sup>(4)</sup>. ويضيف بأن: «الانتظام والتناسق الذي ظهر على حرق الطوب يشهد بأن ذلك لم يكن اعتباطاً، بل نتج عن حذق وتمكن في الحرفة مقصود لحد ذاته، حيث استغلت مادة الطوب الأحمر»<sup>(5)</sup>. (انظر الصورة رقم 1).



الصورة رقم (1): الدفوفة

الدفوفة الغربية ذكرها - أيضاً - وليام ي. آدمز مركزاً على بعض الإضافات التي حدثت في مبناها موضعاً أنها بنيت بنفس نوع الطوب الذي بنيت به الدفوفة ويؤكد هنا استخدام الطوب الأحمر في هذه الإضافات إذ يقول: «عقب البناء الأصلي للدفوفة الغربية، أضيفت زيادتان أضفتا مساحة بارزة على وجهه الشرقي، وأن كليهما مثل البناء الأصلي، طوب محروق، وربما أن كل منهما نهض على الارتفاع الكلي للهيكل الأصلي ليوسع السطح المرتفع في قمة البناء، مع هذا فإن أول

وأكبر الإضافتين يحتوي غرفتين صغيرتين»<sup>(6)</sup>.

وصف صلاح عمر الصادق مبنى الدفوفة الغربية ذاكراً أبعاده ومقاس الطوب الذي بنيت به وأردف قائلاً: «الدفوفة الغربية بناء مستطيل من الطوب عرضه 27 متراً وطوله 52 متراً، يقوم هذا البناء على أساس غير عميق، تتراوح أبعاد الطوب الذي بنيت منه هذه الدفوفة بين (12×17×35سم و 8×17×35سم)»<sup>(7)</sup>.

من خلال هذه الآراء عن استخدام الطوب الأحمر في فترة حضارة كرمة يتأكد لنا أن البداية الحقيقية لحرفة واستخدام الطوب الأحمر كمادة للبناء في الحضارة السودانية بشكل عام، بدأت منذ حضارة كرمة الكلاسيكية قبل 4000 سنة، وربما يكون قبل هذا التاريخ، لكن الدلائل والشواهد الأثرية من خلال مبنى الدفوفة الغربية بكرمة، تؤكد لنا استخدام الطوب الأحمر منذ ذلك التاريخ، فمتى ما ذكرت حضارة كرمة يذكر مبنى الدفوفة الغربية، الذي يعد من أكبر المواقع الأثرية، وحينما يذكر هذا الموقع يتبادر إلى الذهن استخدام الطوب الأحمر.

استمرت حرفة الطوب الأحمر وكذلك استخدامه في البناء بعد فترة حضارة كرمة خلال الفترات التاريخية المتعاقبة حتى فترة الحضارة المروية، وإلى يومنا هذا حيث بدأ الاستخدام والانتشار الحقيقي للطوب الأحمر واستخدامه في البناء إبان الفترة المروية، وسنتطرق في السطور القادمة لإلقاء الضوء على بعض المواقع والمباني الأثرية التي تعود لتلك الفترة، والتي استخدم فيها الطوب الأحمر في البناء؛ وذلك لأن الحضارة المروية من أعظم الحضارات السودانية ولها امتدادها على طول وادي النيل، وتشمل مواقع داخل منطقة الجريف شرق والمناطق المجاورة لها، وتوضح الدلائل الأثرية استخدام الطوب في هذه المواقع بالمنطقة، وتعتبر أول إشارة لوجود الطوب بمنطقة الجريف شرق، والتي تقع ضمن إقليم مروى الكبير، الذي امتد على طول إقليم وادي النيل الأوسط، وهو الإقليم الممتد على ضفاف النيل في مجراه الرئيسي حتى الحدود المصرية بالإضافة إلى إقليم الجزيرة، وكان هذا الإقليم مركز النشاط السياسي والحضاري للمملكة<sup>(8)</sup>.

أما عن مواد البناء التي استخدمت في تلك الفترة وضع عمر حاج الزاكي:

«من الشواهد المتفرقة المتوفرة يمكننا القول بتعدد أشكال المباني التي انتشرت في مدن وقرى المملكة، كما تنوعت مواد البناء التي استغلها المرويون في تشييد مساكنهم وقصورهم، لقد استعملوا الخشب والقش والطين والطوب الأحمر والحجر»<sup>(9)</sup>.

هنا يذكر الزاكي استخدام مادة الطوب الأحمر التي استخدمت في البناء ضمن المواد التي استخدمها المرويون، والشواهد التي تؤكد وجود واستخدام الطوب الأحمر في تلك الفترة كثيرة ومتعددة، إذ يقول: «عرف المرويون حرفة الطوب الأحمر وتميز طوبهم بفخامة الحجم وما زالت أمثلة منه موجودة فيما يعرف بالحمام الروماني وبعض أهرامات البجراوية الشمالية المتأخرة وفي تبطين بئر النقعة التي لا تزال مستعملة»<sup>(10)</sup>.

أما عن آثار الكمائن التي تم فيها إنتاج الطوب الأحمر الذي استخدم في البناء فلم يبقَ منها شيء؛ وذلك لأنها دائماً ما تبنى على ضفاف النيل لأن الحرفة تعتمد على مادة الطمي كمادة

أساسية وهذه نتيجة طبيعية نسبة لتعرضها للفيضانات التي تحدث سنوياً، كما أن النيل يغير مجراه باستمرار، مما أدى إلى زوال تلك الكمائن من على شواطئ النيل، وفي هذا الخصوص ذكر الزاكي فيما يتعلق بالكمائن في الفترة المروية بأن:

«الكمائن عموماً ليست من الآثار التي تبقى فلا بد أنهم نصبوا كمائنهم على ضفاف النيل حيث يكثر الطمي المادة الأساسية في حرفة الطوب الأحمر حتى اليوم»<sup>(11)</sup>.

المباني المروية التي استخدم فيها الطوب الأحمر كمادة للبناء ذكرها وليام بي. آدمز قائلاً: «أن كثيراً من المباني لها واجهة خارجية من الطوب المحروق واستدل على ذلك بمعبد آمون وأشار إلى أنه مبني في شوطه الأوسع بالطوب المحروق خصوصاً الواجهة»<sup>(12)</sup>.

كذلك من أهم المواقع الأثرية التي تعود إلى تلك الفترة والتي قام بتلخيصها صلاح عمر الصادق إذ يقول: «قام فارستانق 1909 - 1914م بالتنقيب في المواقع المروية المختلفة، ومن الأماكن التي قام فيها بالتنقيب: المدينة الملكية، ومعبد آمون، معبد الشمس، معبد الأسد، معبد إيزيس، وهيكل ايبس، بالإضافة إلى المقابر غير الملكية والملكية، ونشير إلى أن النسبة الكبرى من المواقع لم يتم حفرها، وهذا الجزء يتكون من تلال تغطيها كميات من الطوب الأحمر وتلال من بقايا متراكمة من صناعة الحديد التي اشتهرت بها مروى»<sup>(13)</sup>.

جميع الأماكن التي قام فيها فارستانق بالتنقيب نجد فيها استخدام الطوب الأحمر كمادة بناء في وحداتها المعمارية المختلفة، وهي من أهم المواقع الأثرية في عهد مروى التي منها: المدينة الملكية التي تقع إلى الغرب من معبد آمون وتحتوي على عدد من المباني المشيدة التي لها واجهات بنيت بالطوب الأحمر<sup>(14)</sup>، كذلك من المباني معبد آمون بالقرب من السور الكبير الذي يحيط بالمدينة الملكية وله واجهة بنيت بالطوب الأحمر<sup>(15)</sup>، هذا بالإضافة إلى معبد الشمس المحاط بسور من الطوب الأحمر، كما شيد جدران معبد الأسد من الطوب الأحمر<sup>(16)</sup>.

من خلال هذه الإشارات لبعض المواقع والمباني الأثرية في فترتي كرمة والفترة المروية، نؤكد استخدام مادة الطوب الأحمر في البناء كمادة أساسية وهذا يؤكد وجود هذه الحرفة في الفترات التاريخية القديمة في السودان بصورة منتظمة خصوصاً في فترة حضارة كرمة، أول حضارة سودانية وضحت خلالها كل ملامح وعناصر الدولة السودانية قبل 4000 سنة.

### تاريخ حرفة الطوب الأحمر بمنطقة الجريف شرق:

إذا ألقينا الضوء على منطقة الجريف شرق نجد أن هنالك العديد من المواقع الأثرية التي تعود إلى الفترات التاريخية المختلفة، والتي عثر فيها على بقايا الطوب الأحمر، ومن أهمها الموقع الأثري الذي يعود إلى فترة المملكة المروية بمنطقة الجريف شرق، وموقع آخر يقع بمنطقة أم دوم يعود إلى الفترة نفسها على بعد (2 كلم) من الجريف شرق وتزامن معه، بالإضافة للمواقع التي تعود إلى فترة سوبا المسيحية بمنطقة سوبا شرق بالقرب من الجريف شرق، وتنتشر فيها بقايا المباني التي بنيت بالطوب الأحمر، والتي ما زالت موجودة إلى الآن ولها امتدادها داخل منطقة الجريف، هذا بالإضافة إلى وجود مقابر منطقة الجريف شرق تعود إلى فترة دولة الفونج، كل هذه المواقع

سوف نتعرض لها بالشرح من خلال التقارير الأثرية والدراسات التي تمت فيها، بالإضافة إلى الاستشهاد بأقوال الرحالة العرب، خصوصاً التي وردت لتؤكد تاريخية منطقة الجريف شرق بالإضافة إلى الروايات الشفاهية وذلك في السطور التالية.

موقع الجريف شرق الذي يعود إلى الفترتين المروية وفترة ما بعد مروى عبارة عن مقابر تحتل مساحة كبيرة على ضفاف النيل الأزرق، في الناحية الشمالية الغربية بمحاذاة النيل من منطقة الجريف شرق الحالية، وهذا الموقع تم اكتشافه سنة 1980م بواسطة العمليات الإنقاذية التي قامت بها وحدة أبحاث الآثار الفرنسية التابعة للهيئة القومية للآثار والمتاحف، والتي تم تأسيسها سنة 1970م بعد الاتفاقية الثقافية بين السودان وفرنسا، وكانت عمليات الإنقاذ آنذاك في المنطقة حول مدينة الخرطوم ومدينة شندي؛ وذلك لأن تلك المواقع حول المدينتين كانت تتعرض للدمار المستمر بفعل العامل البشري، نتيجة لأخذ التراب من تلك المواقع والذي يستخدم في البناء، أو عمليات الزراعة بالمنطقتين. ما يهمنا هنا أن المقبرة بنيت بالطوب (انظر الصورة رقم 2).



الصورة رقم (2): مقبرة تعود للفترة المروية، موقع الجريف شرق، بني مدخلها بالطوب الأحمر. بها جدار من الداخل يوضع بجانبه المتوفي ممدداً وموازيًا للجدار، والقبر مائلاً من المدخل نحو الجدار ويتم غلق هذا المدخل بالطوب، ومن ثم يتم رصف الأواني الفخارية والبرونزية والأوعية الزجاجية، وجراب السهام والأسلحة بشكل مرتب، ويفصل هذا الترتيب الهيكل من مدخل المقبرة، وواضح من نوع الفخار الذي عثر عليه في هذه المقابر أنه تم إنتاجه بواسطة العجلة، وهذا مؤشر إلى أن الحضارة التي قامت في هذه المنطقة حضارة متقدمة<sup>(17)</sup>.

الموقع الآن دمر تماماً، ولم يبقَ منه شيء؛ وذلك بفعل العامل البشري، لأن الموقع كان يؤخذ منه تراب البناء وما زال، مما أدى إلى زواله، هذا بالإضافة إلى إنشاء كبري المنشية في العام 2005م، والذي يمر شمال الموقع فقد أزاله تماماً وحتى اللافتة التي كانت توضع على الموقع باسم الهيئة القومية للآثار تمت إزالتها بفعل عمليات الردميات بجانب الكبري.

هنالك موقع أثري آخر يعود إلى فترة الحضارة المروية بمنطقة أم دوم الحالية، تم اكتشافه بالصدفة حيث عثر فيه على جزء من تمثال الملك اسبلتا، هذا الموقع وموقع الجريف شرق، وموقع سوبا شرق، جميعها تقع على خط عرض واحد (32°، 15°)، وعلى أبعاد متساوية من النيل الأزرق، كما اعتمد كلا الموقعين أم دوم والجريف شرق على النيل، وهي من المواقع الاستيطانية وهذا يؤكد وجود المقابر وبقايا العظام التي تغطي السطح ووجود المراحيك العليا والسفلى خصوصاً بموقع الجريف شرق<sup>(18)</sup>.

أما عن سوبا المسيحية في الفترة التي تلت الحضارة المروية وتزامنت معها أيضاً، كمدينة تجارية حسب التسلسل التاريخي للحضارة السودانية، فقد ذكر محمد إبراهيم أبو سليم: «وعلى بعد عشرين كيلو متراً جنوب مدينة الخرطوم كانت تقع مدينة سوبا القديمة عاصمة مملكة النوبة المسيحية العليا أو مملكة علوة، وقد اشتهرت سوبا من القرن السادس عشر الميلادي وكانت عامرة بالمباني الجميلة والكنائس المسيحية والمعابد التي بنيت على طراز معابد نبتة والنقعة»<sup>(19)</sup>. بما أن الفترة المسيحية تلت الحضارة المروية وتم اختيار موقع مدينة سوبا لانتقال العاصمة من مروى، فإن ذلك يؤكد استراتيجية المكان وجغرافيته الممتازة كما أن الطراز المعماري الذي ذكره أبو سليم ويشبه إلى حد كبير معابد نبتة والنقعة وهذه الأخيرة تعود إلى الحضارة المروية، وهذا الطراز تمت ملاحظته من خلال بقايا الموقع المروي بمنطقة الجريف شرق والذي به بقايا الطوب المحروق والفخار الملون وعادات الدفن بالمقابر، وهذا يؤكد الاستمرارية التاريخية بالمنطقة ووقوع موقع الجريف شرق داخل حدود مدينة سوبا في فترة الحضارة المروية كما أن هذه المدينة كانت المدينة التجارية الثانية بعد مروى العاصمة، وهذا ما أكده أحمد أحمد سيد أحمد حيث ذكر: «أول ذكر لسوبا على الآثار جاء في لوحة أقامها أحد ملوك مروى سنة 328 ق.م لتخليد ذكرى مباركة الإله آمون لجلوسه على عرش البلاد، فقد عد فيها أقاليم مملكته ومن بينها علوة بعاصمتها سوبا، واشتهرت سوبا في عهد مملكة مروى كمدينة تجارية تحتل المركز التجاري الثاني بعد مروى العاصمة»<sup>(20)</sup>.

ترجع نشأة سوبا إلى أيام الأسرة السادسة والعشرين في مصر، حيث قام نزاع بين الفرعون ايسماتيك الثاني وجماعة من جنده فهربوا إلى منطقة مروى القديمة، ويرجع المؤرخ الروماني Bio (150 ق.م) أن الجند الفارين أسسوا من المدن مدينة Sape، ولما كان من المرجح أن اسم سوبا تحريف لهذا الاسم يتضح أن سوبا من إنشاء هؤلاء الجند. وحيث إن حادث التهريب وقع سنة 586 ق.م، لذلك يغلب على الظن قيام سوبا في تلك السنة أو بعدها بسنوات قليلة على عهد مملكة نبتة<sup>(21)</sup>.

إذا أردنا أن نحقق في تاريخ هذه المملكة في القرون الوسطى، نجد معظم المعلومات في كتب الرحالة العرب، لا سيما ابن حوقل وابن سليم الأسواني. فقد زارا النوبة في النصف الأول من القرن الرابع الهجري؛ أي بين سنة 950م وسنة 970م، وأجمع الرحالان على أن مملكة علوة كانت واسعة وقوية.

جاء في ابن حوقل: «ومن أعمر بلاد النوبة نواحي علوة وهي ناحية لها قرى متصلة، وعمارات مشتبكة حتى أن السائر ليجتاز في المرحلة الواحدة بعدة قرى غير منقطعة الحدود ذوات مياه متصلة بسواقي على النيل»<sup>(22)</sup>

كذلك ذكر ابن سليم الأسواني: «عاصمة علوة مدينة سوبا الواقعة على الضفة الشرقية للنيل الأزرق قرب ملتقى النيلين وفي هذه المدينة مبانٍ حسان ومنازل واسعة وكنائس كثيرة الذهب ويساتين»<sup>(23)</sup>.

هذا يؤكد وقوع منطقة الجريف شرق داخل حدود مدينة سوبا، وأن المباني التي تم وصفها من قبل أولئك الرحالة لها بقايا داخل الجريف شرق، وهذا ما سوف نتطرق له لاحقاً، وهذه البقايا بنيت من الطوب الأحمر مميزة الإنشاء المعماري النوبي المسيحي، والذي أكدته فانتيني إذ يقول: «إن الطوب الأحمر مميزة الإنشاء المعماري النوبي المسيحي»<sup>(24)</sup>.

أيضاً ذكر أبو صالح الأرمني في القرن الثالث عشر الميلادي، وهو مهتم بالجوانب المسيحية، فقد ذكر عن سوبا: «مدينة علوة بها جيش، ومملكة عظيمة جداً، وأعمال متسعة، وبها أربعمائة كنيسة، وهذه المدينة شرقي الجزيرة الكبيرة بين البحرين الأبيض والأخضر، وجميع من بها نصارى يعاقبة، حولها ديارات متباعدة من البحر ومنها ما هو على البحر، وبها كنيسة عظيمة جداً متسعة محكمة الوضع والبناء»<sup>(25)</sup>، وهذا الموقع الذي وصفه يشمل منطقة الجريف شرق حيث ذكر أنها شرق الجزيرة بين البحرين الأبيض والأخضر ويقصد بها النيل الأبيض والأزرق.

بعد الدراسات الآثارية التي أجريت في مدينة سوبا المسيحية نستشهد بأقوال بعض الآثاريين الذين أكدوا عظم هذه المملكة ومنهم بيتر شيني، الذي يؤكد أنه في ذلك الوقت لا توجد شواهد للبناء من أجل السكنى، إلا من سوبا حيث نجد أن المساكن والكنائس كانت من الطوب، وأن الحفريات التي أجريت في سوبا سنة 1952م تدل على أنها كانت مدينة عظيمة، واستشهد في ذلك بصناعة الفخار المميز المنقوش الجميل الذي نجده في سوبا، إذ ذكر أنه يحمل بين طياته سراً غامضاً لا يعرف ما يمثله في المملكة الشمالية ولا في مصر ولا في الأقطار المجاورة<sup>(26)</sup>.

أيضاً خلال الحفريات الأثرية لمنطقة سوبا شرق بواسطة البعثة الإنجليزية عام 1981م، تم كشف العديد من الأكوام الترابية التي عثر بداخلها على آثار مدينة تعود إلى الفترة المسيحية، وقدر تاريخها بحوالي الألف الأول الميلادي والتي تحتوي على كميات كبيرة من الطوب الأحمر، الذي بنيت به الأسوار ذات السمك الموحد والتي استخدم فيها الطلاء (البلاستر). وهذا النمط يمثل نمط المعمار في البدايات الأولى للفترة المسيحية، هذا بالإضافة إلى تواجد اللقى الأثرية المروية والتي تشير إلى استيطان الموقع وازدهاره في الفترة المروية قبل الفترة المسيحية، كما أن هنالك تطور

ملحوظ في الطوب الأحمر، إذ وجد أن الطوب الأحمر أحياناً تتم زخرفته قبل عملية الحرق، حيث تم العثور على أنواع متعددة من الأماط الزخرفية<sup>(27)</sup>.

الأماط المعمارية للكنائس وعمارة المعابد المروية التي تتشابه، هذا ما أكدته آراء الرحالة السالفة الذكر والمؤرخون، وهذا بدوره يؤكد الاستمرارية في أمطاب بناء العمارة بمدينة سوبا. منطقة الجريف شرق تاريخياً تقع داخل حدود مدينة سوبا المسيحية وعاصرت - أيضاً- منطقة سوبا منذ الفترة المروية وتعتبر من أقدم المدن؛ وذلك لأن مدينة سوبا المسيحية لها امتدادها داخل منطقة الجريف شرق الحالية وفي الجزء الشرقي تحديداً هنالك بقايا لآثار مسيحية، تعود إلى تلك الفترة، وتعتبر من بقايا مدينة سوبا، وهذا ما ذكره الراوي حسن المبارك: «هي مملكة سوباً بتمتد لغاية منطقة الجريف دي حتى هنا عندنا منطقة شرق الجريف طوالي منطقة أثريّة معمولة فيها علامات أثريّة حتى والدي طبعاً كبير يعني قال لي نحنا زمان بنقول عليها قلعة هاجر لكن هسغ التاريخ ما ورؤنا عنها أي معلومة وحالياً في جزء منها موزع أراضي سكيّة لكن هي منطقة أثريّة فيها بقايا طوب وفيها بقايا كتل ما بنقول خرسانة لأنو زمان مافي خرسانة لكن حجر، إمکن بطول أربعة متر معانها هنا كانت في حصاره»<sup>(28)</sup>.

من هذه الجزئية من حديث الراوي نستنتج أن مملكة سوبا تمتد داخل منطقة الجريف شرق من الناحية الشرقية، بدليل الموقع الأثري الذي به بقايا الطوب الأحمر والحجارة والذي يطلق عليه «قلعة هاجر»، هذا الموقع لم تجرى فيه دراسة إلى الآن كما أصابه الدمار؛ وذلك لأنه تم توزيع الأرض التي يقع فيها الموقع شرق المنطقة للسكن.

كما ذكر الباحث سابقاً من خلال المعلومات التاريخية وأقوال الرحالة العرب والتاريخ الشفاهي بالمنطقة، مما يؤكد أن مدينة سوبا لها امتدادها داخل منطقة الجريف؛ وذلك لأنها تمتد حتى ضفة النيل الأزرق، كما تقع إلى الشرق مباشرة من منطقة الجريف الحالية، فمدينة سوبا بشكل عام كانت تشمل منطقة الجريف شرق، ومنطقة أم دوم؛ أي تحتل كل المساحة التي تقع فيها هذه المناطق على امتداد النيل الأزرق.

كذلك ورد في كتاب مهدي الفحل، تاريخ وأصول العرب بالسودان قصة خراب سوبا قوله:

«كان الأمير مسمار قد ارتحل من بارا ونزل العرشكول بقصد جمع كلمة عموم العرب وحرب ملك سوبا فسعى وبعد ذلك تم الاتفاق بين أمراء قبائل قحطان بواسطة الأمير حيدر على أن يغزوا عاصمة العنج والنوبة في مملكة علوة إلى سوبا وفعلاً اشتبكوا مع العنج والنوبة في حرب ضروس ومنازلات دامت أياماً متعددة فهزموا الملك عفايق وقتلوه ولم يتعرضوا للكنائس بأذى بل تركوها موفورة الكرامة وكانت الكنائس على الشاطئ وأثارها موجودة وبعد قتل الملك قسموا بين الناس الغنائم واتفقوا على أن يكون النيل الأزرق من كركوج إلى آخره ملكاً لقبائل قحطان وسميت البحر الجهني ومن كركوج ملكاً للجعليين وسمي بحر الجعليين ودام هذا إلى مجيء الأتراك سنة 1236هـ»<sup>(29)</sup>.

هذا يؤكد أن منطقة الجريف شرق الحالية داخل حدود مدينة سوبا المسيحية بدليل ذكر كركوج وهي أقدم أحياء الجريف شرق، هذا بالإضافة إلى وجود الجعليين في تلك المنطقة منذ ذلك التاريخ وإلى الآن فمعظم السكان المحليين الآن من الجعليين، وتحديدًا أصحاب الكمائن الذين يمارسون حرفة الطوب الأحمر بالمنطقة على امتداد الشاطئ، بالإضافة إلى وجود الكنائس في ذلك الزمان، والتي تمتد حتى الشاطئ وهذا يؤكد امتداد مدينة سوبا داخل منطقة الجريف شرق. كذلك ورد ذكر آخر لمنطقة الجريف شرق الحالية من خلال التاريخ الذي سرده نعوم شقير في هذا السياق، متحدثاً عن خراب سوبا والذي بهوجبه سيطر الفونج على تلك المملكة، حيث قال: «قام الفونج في جزيرة سنار فاتحدوا مع العرب وهاجموا العنج فقتلوهم شر قتلة وخرّبوا سوبا خراباً تاماً حتى صاروا يضربون المثل في خرابها فيقولون (فلان خرب خراب سوبا) ثم ساروا إلى قرّي عند جبل الرويان شمالي الخرطوم فقتلوا ملكها واستولوا عليها وأسسوا مملكة سنار أقام فيها الفونج ومشيخة في قري أقام فيها كبير العرب وقد انقرض النوبة من تلك المنطقة وانقرضت لغتهم ولم يبقَ منهم إلا نفر قليل نواحي شندي وجريف ود قمر فاعتنقوا الإسلام واتخذوا لغة العرب لغة لهم ولم يزالوا مميزين عن العرب في الملامح»<sup>(30)</sup>.

من خلال هذا السرد ورد ذكر لجريف ود قَمَر، وهذه المنطقة ومنطقة كركوج هما من أقدم أحياء منطقة الجريف الحالية، وهذا يؤكد أن هاتين المنطقتين مكان إقامة النوبة المسيحيين في ذلك الزمان داخل حدود مملكة سوبا المسيحية، بالمنطقة بلا شك هي تتبع لإقليم سوبا المسيحية. أما في فترة دولة الفونج بمنطقة الدراسة فهناك آثار لمقبرة كبيرة جداً بمنطقة غابة كركوج الحالية أقدم أحياء الجريف شرق، وتقع في الجزء الجنوبي منها، ونلاحظ أن كل القبور عمِل بها سياج من الطوب الأحمر كبير الحجم، وهذا يؤكد قدم هذا النوع من الطوب، الذي تم انتاجه في تلك الفترة، والذي يشير إلى استخدامه في فترة دولة الفونج بالمنطقة، كما يؤكد أيضاً تاريخية منطقة الجريف شرق (انظر الصورة رقم 3).



الصورة رقم (3): مقابر كركوج التي بها الطوب الأحمر التي تعود لفترة الفونج.

ما يهمننا من هذه المقابر قبر الشيخ إبراهيم ولد أبو عمارة، والذي يقال: إنه قُتِلَ مكانه الشيخ عجيب المانجلك في واقعة كركوج، الذي دفنه أبناءه بمنطقة قَرِّي. وفي هذا الخصوص ذكر أبو القاسم عثمان عن قتال كركوج: «الملك عدلان ولد آيا وهو صاحب قتال كركوج وهو الذي قتل الشيخ عجيب الكافوتة لما عصاه وخرج عن طاعته، سار إليه من سنار ويقال: إنه نزل بالتي وأرسل إليه الجيش فتلقاهم الشيخ عجيب المذكور ومن معه بمحل يقال: له ولد أبي عمارة. ومعروف بجوار كركوج - تقع كركوج على خطي عرض 35، 15 و 26، 32 وهي أقرب إلى الخرطوم - الجريف شرق الآن - فاقتتلوا هناك وقتل الشيخ عجيب المذكور وهرب أولاده إلى دنقلا وتاريخ الواقعة (1016هـ - 1607م) ثم أرسل إليهم الملك الشيخ إدريس ولد الأرباب وهي أول مرتبة ظهرت عند الفونج وأعطاهم الأمان فجاءوا معه وشيخ أحدهم وهو الشيخ العجيل»<sup>(31)</sup>.  
الشيخ عجيب الكافوتة ورد ذكره في كتاب الطبقات: «هو الشيخ عجيب الكبير أو الكافوتة ويلقب بالمنجلك، الابن الأصغر لعبدالله جماع زعيم القبائل العربية التي كان لها دور رئيسي في سقوط مملكة علوة ويزعم أن أمه بنت الشريف حمد أبو دنانة، ومن ثم فهو ابن خالة الشيخ إدريس ود الأرباب وقد آلت إليه زعامة مشيخة قَرِّي التي تمتد بين حجر العسل وأرجبي كما يمتد نفوذ العبدلاب السياسي حتى حدود مصر مع مملكة الفونج في الشمال التي تسكن البطانة، ويرجح أنه حكم من 1570 إلى 1611، وقد قُتِلَ في تلك السنة، وذلك في عهد السلطان عدلان ولد آية، وكان رجلاً تقياً ورعاً، اهتم بتشجيع العلماء وأسس المساجد، كما عين عدداً من القضاة. والمتواتر أنه عمر طويلاً. وقد اشتهر أحفاده من بعده بأولاد عجيب حتى كاد اسم عجيب أن يصير لقباً على من خلفوه من مشيخة العبدلاب»<sup>(32)</sup>.

من خلال هذا النص نلاحظ علاقة الشيخ عجيب بالشيخ إدريس ود الأرباب والذي شيدت له قبة بعد وفاته تمثل مزاراً إلى اليوم في منطقة العيلفون، وهي من أقدم القباب في شرق النيل، وبنيت من الطوب الأحمر وتقع شرق منطقة الجريف شرق، كما يؤكد ذلك وقوع منطقة الجريف شرق داخل حدود مملكة الفونج والتي تمتد شرقاً حتى ديار البجة، هذا بالإضافة إلى مقتل الشيخ عجيب في سنة 1611هـ الذي أسس المساجد وهذه المساجد معظمها بمنطقة الجريف شرق، التي تعتبر من أكثر المساجد عدداً في أفريقيا قاطبة، ولها تاريخها الطويل حيث شيدت بالطوب الأحمر، فهذا يؤكد استخدام الطوب الأحمر وانتاجه بالمنطقة منذ ذلك التاريخ حيث إن الشيخ عجيب عاش بين 1570 هـ حتى 1611هـ.

أما عن مقتل الشيخ عجيب فقد ورد في كتاب الطبقات أيضاً: «ومنها أخباره للشيخ عجيب حين شاوره على حرب الفنج. أن الملك عدلان ولد آية قتل الشيخ عجيب صاحب الكافوتة لما عصاه وخرج عن طاعته، قال للشيخ: الفونج غيروا العوايد علينا قال له: لا تحرب عليهم فإنهم يقتلوك ويملكوا ذريتك من بعد إلى يوم القيامة، فكان الأمر كما ذكر. ومنها اخباره للملك بادي بن رباط حين جاء سيد قوم للملك عدلان ولد آية طالبين قتال الشيخ عجيب، وبادي المذكور حوار الشيخ إدريس فسأله عن أمره فقال له: تقتلوا الشيخ عجيب وتنتصروا وأنت ترجع إلى سنار

ويكون الملك في ذريتك من بعدك، فكان الأمر كما قال. وقد ملك منهم خمسة رباط، وبادي ولده، أونسة ولد ناصر، وبادي ولده، وأونسة ولده ومدة ملكهم مائة سنة وعشر سنين. ومنها إخباره وأن ملك الفنج ينقضي وسبب انقضائه أنهم يتحاربون وينقسمون على قسمين تقاثل كل طائفة الأخرى حتى يضيع كل ملكهم. فمنها ما هو وقع وما هو منتظر الوقوع انتهى.. والله أعلم»<sup>(33)</sup>.

يمكن أن نستنتج أن المعركة وقعت في منطقة الجريف شرق بكركوج، وهذا المكان يقع تحديداً جنوب الجريف شرق الحالية بغابة كركوج، كما تعرف الآن، وبها قبر الشيخ إبراهيم ود أبو عمارة، والآن هو مزار يزوره أهالي منطقة الجريف، وجوار هذا القبر توجد مقبرة كبيرة جداً، يقول عنها حسب الفزاري: «إنها مقبرة طارئة دفن فيها على عجل قتلى هذه المعركة الذين لا بد كانوا بال عشرات وربما المئات، ويبدو أنه فيما بعد دفن بها الولي الصالح الشيخ موسى جعار البقرة»<sup>(34)</sup>، والشيخ موسى قبره الآن أصبح مزاراً بالنسبة لأهالي المنطقة ويوجد بتلك المقبرة.

أما عن الشيخ إبراهيم ود أبو عمارة فقد ورد في الروايات الشفهية بالمنطقة أن له مقام قتل بمكانه الشيخ عجيب المانجلك، الذي دفنه أولاده بعد ذلك بمنطقة قَرِي وهذا المكان هو غابة كَرْكُوج بمنطقة الجريف شرق ومن هذه الروايات نص الرواية التي رواها لنا حسن عباس ونأخذ منها هذه الجزئية.

«مَقَامُ الشَّيْخِ إِبراهيم وَوَدَّ أَبُو عُمارة حفيد الشيخ حجازي وَوَدَّ حجازي وهذا الشيخ قديم جداً وزمنه من عهد الفونج والشيخ إبراهيم ود أبو عمارة، الشيخ عَجِيب المَانْجُلْكِكْ إِنْوَفًا جَنْبُ الشَّيْخِ إِبراهيم ولد أبو عمارة عندما جاء الشيخ عدلان في كَرْكُوج قادم إليه من الجزيرة إلى أن قطع بهذا النيل والتقى في هذا المكان وقتل الشيخ عَجِيب وتحول جثمانه ودفن في قَرِي وتوفي جَنْبُ إِبراهيم وَوَدَّ أَبُو عُمارة، هذا المقام المشهور في الجْرِيف»<sup>(35)</sup>.

وتذهب الرواية أكثر من ذلك وتقول:

«هذه الحِلَّة كانت تسمى بِحِلَّةِ الدَّبْكَرَةِ وكان يسكن فيها العَبْدُلابُّ والفُونْج والعَنْج في هذه المنطقة وبها مقابر كبيرة شرق هذا المقام مقام وَوَدَّ أَبُو عُمارة»<sup>(36)</sup>.

يمكن أن نقارن هذه الرواية بما ذكره حسب الفزاري الذي يقول:

«ويلاحظ بأن بعض المؤرخين والباحثين اقتربوا من اكتشاف ذلك الموقع حينما ذكروا بأن الموقع في مكان ما يسمى (دَبَاكِرَة) أو (دَبْكَرَة) ود أبو عمارة، فقد كانت كركوج تسمى في الزمن القديم (الدَّبْكَرَة)، وحين يطلق على الموقع اسم دبكرة ود أبو عمارة فلا يكون المقصود (كَرْكُوج) وإنما (وَوَدَّ أَبُو عُمارة) لأن الموقع الأخير جاء مقيداً للموقع الأول، وود أبو عمارة هو موقع أقرب إلى كركوج»<sup>(37)</sup>.

من خلال ما سبق يمكن أن نستنتج أن المكان الذي توفي فيه الشيخ عجيب المانجلك هو دبكرة ود أبو عمارة، جوار مقام ود أبو عمارة الموجود الآن بغابة كركوج، وهذه الحادثة في زمن الفونج، كما أن الشيخ إبراهيم ود أبو عمارة أيضاً عاصر فترة الفونج، وإلى الشرق من هذا المقام توجد مقبرة كبيرة مدفون بها الشيخ موسى جعار البقرة.

ما يهمننا في هذه المقبرة أن من أقدم أحياء الجريف كركوج «دبكرة ود أبو عمارة»، بالإضافة إلى وجود الطوب الأحمر كبير الحجم الذي بني به قبر الشيخ ود أبو عمارة، وبقية المقابر إلى الشرق من مقامه وهذا يؤكد استخدام الطوب الأحمر في تلك الفترة التي لها أكثر من خمسمائة عام، كما يؤكد - أيضاً - قدم منطقة الجريف شرق أي منطقة كركوج الحالية، وهي من أقدم أحياء الجريف. (انظر الصورة رقم 4).



الصورة رقم (4): قبر الشيخ ود أبو عمارة.

من خلال هذا التاريخ يمكن أن نلقي الضوء على أصل اسم الجريف التي من أقدم أحيائها كركوج وجريف ود قمر، وقمر اسم شخص من أتباع العبدلاب وكان يعمل بالزراعة على الجروف في المنطقة لذلك؛ سميت باسمه (جريف قمر)، والجريف هو المساحة الصغيرة المتاخمة للنيل ذات الأرض الخصبة التي تمارس فيها الزراعة لذلك أخذت هذا الاسم والمقصود بكركوج أن «كوج» اسم شخص له كار أي حظيرة للحيوان ويرعى الأبقار لذلك عرف بـ «كار كوج» وحرف الإسم إلى كركوج.

من الآثار التي تعتبر شاهداً على الوجود الأثري للطوب الأحمر بالمنطقة قبة الشيخ سرحان، قام بتصوير هذه القبة الرحالة خالد عشيرة، في العام 1973م واستعان بهذه الصورة أبو القاسم عثمان في كتابه الجريف شرق منارة العلماء والصالحين<sup>(38)</sup>. (انظر الصورة رقم 5).



الصورة رقم (5): قبة الشيخ سرحان.

ذكر أنه شاهد هذه القبة التي بنيت بالطوب الأحمر وطول الطوبة (صُراع) والشيخ سرحان ورد ذكره بكتاب الطبقات 39(2). كما أضاف أن هنالك أيضاً قبة الشيخ عبد الرحمن الحادو الذي دُفِن قبل أربعمئة وخمسين سنة ووضع رأسه الشيخ حسن ود حسونة<sup>(40)</sup>. هذه القباب على سبيل المثال وليس الحصر بمنطقة الجريف شرق والتي بنيت بالطوب الأحمر، وتعود إلى فترة دولة الفونج والتي تؤكد - أيضاً - تاريخ منطقة الجريف شرق. ذكر أبو القاسم: «أن الشيخ سرحان درس على يدي الشيخ حمد ود أم مريوم واستقر بجريف قمر وأوقد نار القرآن إلى أن وافته المنية سنة 1206هـ الموافق 1792م»<sup>(41)</sup>، والآن بِجَرِفِ قَمَر له حي كامل يقطن به أحفاده ويعرف باسم حي سرحان بمنطقة الجريف شرق. هنالك أيضاً مجموعة كبيرة من المساجد القديمة التي تعود إلى فترة الفونج والتي بنيت بالطوب الأحمر ونذكر هنا على سبيل المثال المسجد الموجود الآن في حي كركوج الذي بناه الشيخ عجيب وأوقف عليه دار والذي ذكر بكتاب الطبقات وبناه للشيخ حمد النجَّيِّص العَوْصَالي، الذي أخذ الطريق من الشيخ تاج الدين البهاري وهو أحد الأئمة الذين طلبهم الشيخ حسن للطريقة وأقروا الناس القرآن دهرًا طويلًا. وكان له عند الشيخ عجيب مقام ومكانة. وحارب معه وقتل في كركوج في قتال الفونج<sup>(42)</sup>.

هذه المباني الآن تم تجديدها حيث اختفت معالمها القديمة تمامًا، مثل قبة الشيخ صباحي، التي تغيرت ملامحها بعد التجديدات التي حدثت فيها، لكن ما يهمنا أنها تؤكد وجود حرفة الطوب الأحمر في فترة الفونج، والتي تمثل جزءاً كبيراً من تاريخ منطقة الجريف شرق، وهنالك - أيضاً - الكثير من المواقع المتمثلة في القباب والأضرحة والمساجد، وهذه الأخيرة اشتهرت بها منطقة الجريف شرق حيث يوجد بها الآن ثلاثين مسجداً وهذه نتيجة طبيعية؛ لأن المنطقة عرفت بأهل

العلم والصالحين والتصوف، فلم تجد بها عائلة إلا وجدُّها من مشاهير الرجال الذين يشار لهم بالبركة والصلاح، ومثالاً لا حصرراً أحفاد الشيخ عبد الرحمن الحادو، و الشيخ صباحي، والشيخ صغبيرون، والشيخ العبيد محمد بدر، والشيخ حمد ود أم مريوم، والشيخ خوجلي أبو الجاز، والشيخ إدريس ود الأرباب، والشيخ عبد الله العري، والشيخ أحمد الطيب البشير (رأجل أم مَرَّحِي) وآخرون، ومعظم هؤلاء الشيوخ والأولياء ورد ذكرهم في كتاب الطبقات في خصوص الأولياء والصالحين والعلماء في فترة دولة الفونج، وهذا يؤكد تاريخية منطقة الجريف شرق.

أما في الفترة التركية يذكر أبو سليم نقلاً عن مذكرات محمود القباني عن تاريخ الخرطوم إذ يقول: «ومنذ نشأتنا وجدناها مدينة زاخرة بال عمران و بنايات الآجر (الطُوبُ الأَحْمَر) والحجارة المنضدة وكانت تستخرج من حفر الشاطئ الغربي بأمر درمان . كما أن القمائن التي تشوى بها اللبن كانت في الضاحية الشرقية البراري والجريفات»<sup>(43)</sup>.

هذا يؤكد وجود كمائن الطوب الأحمر بمنطقة الجريف شرق إبان الفترة التركية، وممارسة هذه الحرفة في تلك الفترة بالمنطقة، وفي موضع آخر من كتاب تاريخ الخرطوم خلال تلك الفترة ونتيجة للنهضة العمرانية التي انتظمت الخرطوم ذكر أبو سليم أيضاً:

«اعتمد خورشيد في أول الأمر على الطوب الذي جلبه من خرائب سوبا، ويقال: أنه عهد بذلك إلى عبد السلام زعيم المغاربة والذي كان مرابطاً بقومه في موضع حلة كوكو بالخرطوم بحري»<sup>(44)</sup>.

في هذا الخصوص يمكن أن نضيف ما ذكره أحمد سيد أحمد عن تاريخ الخرطوم - أيضاً- إذ يقول: «وقد استعان خورشيد بطوب سوبا في إقامة مبنى المديرية الواقع غرب السراي مباشرة وكذلك الجامع»<sup>(45)</sup>.

في موضع آخر يذكر أحمد سيد أحمد:

«هدم الحكمدار عبداللطيف باشا (أكتوبر 1851-1849م) مبنى اللبن الذي أقامه محوبك وأدخل عليه خورشيد بعض التحسينات - وأعاد بناء السراي من جديد مستعيناً بالآجر المنقول من بقايا مدينة سوبا وبعض المباني القديمة في أبي حراز التي ترجع إلى العهد المسيحي، وتم ذلك في تسعة أشهر فقط»<sup>(46)</sup>.

في الفترة المهديّة هنالك معركة دارت بمنطقة الجريف شرق، وذلك حينما أراد جيش المهدي حصار غردون، إذ ترك أبو قَرْجَه قوة بقيادة محمد الطيب البصير في الجريف، وتقدم هو بقوته الرئيسة حتى بلغ بري، بنى طابية في مواجهة طابية المدينة بينما شرع محمد الطيب في بناء طابية في الجريف وقد عسكر الطاهر بن العبيد بدر في منطقة تقع بين أبي قرجة ومحمد الطيب، وقد شرعت القوات الثلاث تقذف الحمم على المدينة. وقد واصل غردون انتصاراته ونقل المعركة إلى أم ضبان ولكنها هزمت هزيمة نكراء، فاستعاد الأنصار أنفاسهم قليلاً<sup>(47)</sup>. في تلك الفترة حمل الشيخ بابكر عبدالقادر خليل محمد حجازي راية الجهاد مع الثورة المهديّة، وكان أميراً في جيش الإمام المهدي، حتى لقب بالأمير والذي تم انضمامه مؤخراً إلى حصار الخرطوم من الناحية الشرقية

تحت قيادة الشيخ العباس محمد بدر، الذي اجتاز النيل الأزرق ونزل في الجريف وحاصر المدينة منها<sup>(48)</sup>.

بعد انقضاء الفترة المهديّة بمقتل الخليفة عبدالله التعايشي عام 1899م، استقر الشيخ بابكر بالجريف كركوج، وأسس بها مسجده العتيق وكان افتتاح هذا المسجد متزامناً آنذاك مع عدد كبير من المصالح والمنازل، التي قام بتشييدها الإنجليز في العام 1902م، منها رئاسة المديرية والمستشفى العسكري والبريد والبرق والمخازن والأشغال والفندق الكبير والسوق والمسجد وقصور يمتلكها الوطنيون<sup>(49)</sup>. استمر هذا المسجد بالجريف كركوج إلى اليوم، وبه خلوة لتعليم القرآن، وما يهمننا عراقية هذا المسجد الذي بني بالطوب الأحمر وتزامن بناءه مع مجموعة من المباني في فترة الحكم الإنجليزي والذي يؤكد وجود الطوب الأحمر واستمراره إبان فترة الاستعمار الإنجليزي.

### الخاتمة:

من خلال كل الإشارات السابقة التي توضح البدايات الأولى لاستخدام مادة الطوب الأحمر في البناء منذ فترة حضارة كرمة الكلاسيكية في الدفوفة الغربية، والتي تم استخدامها الفعلي في الفترة المروية، وتم انتشارها الواسع خلال الفترة المسيحية والإسلامية، وكل هذه الفترات المختلفة نجد لها الدلائل الأثرية بمنطقة الجريف شرق، والتي تؤكد قدم الوجود الأثري للطوب الأحمر بالمنطقة وبالتالي قدم المنطقة نفسها وعراقتها، واستخدام مادة الطوب الأحمر في البناء منذ الفترة المروية والمسيحية وفترة الفونج والفترة التركية وفترة الحكم الإنجليزي المصري، من خلال الأدلة التي تعرضنا لها بالشرح والتحليل في الفقرات السابقة من خلال الدراسات التي تمت بالرجوع إلى السجل الأثري والتاريخي.

من خلال العرض السابق للورقة تم تأكيد أن منطقة الجريف شرق تاريخياً تقع داخل حدود مدينة سوبا المسيحية وعاصرت - أيضاً - منطقة سوبا منذ الفترة المروية وتعتبر من أقدم المدن؛ وذلك لأن مدينة سوبا المسيحية لها امتدادها داخل منطقة الجريف شرق الحالية وفي الجزء الشرقي تحديداً هنالك بقايا لآثار مسيحية، تعود إلى تلك الفترة، وتعتبر من بقايا مدينة سوبا. كذلك تم تقديم العديد من الدلائل التي تؤكد وجود حرفة الطوب الأحمر في فترة الفونج، والتي تمثل جزءاً كبيراً من تاريخ منطقة الجريف شرق، وهنالك - أيضاً - الكثير من المواقع المتمثلة في القباب والأضرحة والمساجد، وهذه الأخيرة اشتهرت بها منطقة الجريف شرق حيث يوجد بها الآن ثلاثين مسجداً وهذه نتيجة طبيعية؛ لأن المنطقة عرفت بأهل العلم والصالحين والتصوف، فلم تجد بها عائلة إلا وجدّها من مشاهير الرجال الذين يشار لهم بالبركة والصلاح، ومثالاً لا حصراً أحفاد الشيخ عبد الرحمن الحادو، و الشيخ صباحي، والشيخ صغيرون، والشيخ العبيد محمد بدر، والشيخ حمد ود أم مريوم، والشيخ خوجلي أبو الجاز، والشيخ إدريس ود الأرباب، والشيخ عبد الله العري، والشيخ أحمد الطيب البشير (رَاجِلُ أُمِّ مَرَّحِي) وآخرون، ومعظم هؤلاء الشيوخ والأولياء ورد ذكرهم في كتاب الطبقات في خصوص الأولياء والصالحين والعلماء في فترة دولة الفونج، وهذا يؤكد تاريخية منطقة الجريف شرق.

أما في الفترة التركية فقد ذكر أبو سليم نقلاً عن مذكرات محمود القباني عن تاريخ الخرطوم في أكثر من موضع كما بيّنا في هذه الورقة وجود كمائن الطوب الأحمر بمنطقة الجريف شرق إبان الفترة التركية، وممارسة هذه الحرفة في تلك الفترة بالمنطقة نتيجة للنهضة العمرانية التي انتظمت الخرطوم في ذلك الوقت.

أيضاً تم الإستدلال ببعض المباني التي بنيت بالطوب الأحمر في فترة الحكم الإنجليزي وهذا يؤكد وجود الطوب الأحمر واستمراره إبان فترة الاستعمار الإنجليزي.

من خلال كل الدلائل التي تم استعراضها في هذه الورقة التي تناولت تاريخ حرفة الطوب الأحمر بمنطقة الجريف شرق يتضح لنا أن هذه الحرفة لها وجود تاريخي ضارب بجذوره في القدم منذ الفترة المروية واستمرت عبر الفترات التاريخية المختلفة مروراً بالفترة المسيحية وفترة الفونج والفترة التركية وحتى فترة الاستعمار الإنجليزي المصري، وهذا يوضح مدى الاستمرارية الحضارية التي تؤكد الهوية الثقافية بالمنطقة من خلال حرفة الطوب الأحمر وممارستها في الجريف شرق.

## الهوامش:

- (1) Salah el-din Mohamed Ahmed, L'agg lomeration Napat'ene De Kerma, Enquete archéologique et ethnographique en milieu urbain. Edition Recherche sur les civilizations. Paris, 1992. pp 95-103.
- (2) أحمد محمد علي الحاكم، شارلس بونيه، كرمة مملكة النوبة تراث إفريقي من عهد الفراعنة، إشراف صلاح الدين محمد أحمد، شركة دار الخرطوم للنشر والتوزيع، الخرطوم، 1997م، ص 031.
- (3) أحمد محمد علي الحاكم، شارلس بونيه، نفسه، ص 117.
- (4) أحمد محمد علي الحاكم، شارلس بونيه، كرمة مملكة النوبة تراث إفريقي من عهد الفراعنة، مرجع سابق، ص 157.
- (5) أحمد محمد علي الحاكم، شارلس بونيه، نفسه، ص 159.
- (6) وليام ي. آدمز، النوبة رواق أفريقيا، ترجمة وتقديم: محجوب التجاني محمود، مطبعة الفاطميا أخوان، القاهرة، 5002م، ص 791.
- (7) صلاح عمر الصادق، الحضارات السودانية القديمة، مكتبة الشريف الأكاديمية، الخرطوم، 7002م، ص 95.
- (8) عمر حاج الزاكي، مملكة مروى التاريخ والحضارة، سلسلة إصدارات وحدة تنفيذ السدود، إصدار رقم (7)، مطابع الصالحاني، الخرطوم، 6002 م، ص 13.
- (9) عمر حاج الزاكي، نفسه، ص 601.
- (10) عمر حاج الزاكي، نفسه، ص 144.
- (11) عمر حاج الزاكي، نفسه، ص 146.
- (12) وليام ي. آدمز، النوبة رواق أفريقيا، مرجع سابق، ص 294.
- (13) صلاح عمر الصادق، الحضارات السودانية القديمة، مرجع سابق، ص 95.
- (14) صلاح عمر الصادق، نفسه، ص 96.
- (15) صلاح عمر الصادق، نفسه، ص 98.
- (16) صلاح عمر الصادق، نفسه، ص 102.
- (17) Francis Geus, Rescuing Sudan Ancient Cultures, A cooperation Between France And Sudan In The Field of Archaeology, French Unite of the Directorate General of Antiquities and national Museums of the Sudan, 1984. pp 38 -39.
- (18) صلاح عمر الصادق، تقارير آثرية عن المواقع الأثرية بالسودان، مكتبة الشريف الأكاديمية، الخرطوم، 2006م، ص ص 69-67.
- (19) محمد إبراهيم أبو سليم، تاريخ الخرطوم، دار الجيل، ط3، بيروت، 1991م، ص ص 9 - 10.
- (20) أحمد أحمد سيد أحمد، تاريخ مدينة الخرطوم تحت الحكم المصري (1820 - 1885م)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2000م، ص ص 21-20.

- (21) أحمد أحمد سيد أحمد، نفسه، ص 20.
- (22) ج. فانتيني، تاريخ المسيحية في الممالك النوبية القديمة والسودان الحديث، الخرطوم، 1978م، ص 110.
- (23) ج. فانتيني، نفسه، ص 113.
- (24) ج. فانتيني، نفسه، ص 207.
- (25) قيصر موسى الزين، «المدن السودانية في كتابات الرحالة المسلمين»، مجلة الخرطوم، تصدر عن وزارة الثقافة والشباب والرياضة، مارس، أبريل، العدد (29)، 2007م، ص ص 36-43.
- (26) ب. ل. شيني، بلاد النوبة في العصور الوسطى، ترجمة، نجم الدين محمد شريف، مصلحة الآثار السودانية، رسالة المتحف (2)، الخرطوم، 1954م، ص ص 19-10.
- (27) Derek A. Welsby, SOBA II, Renewed excavations with in the metropolis of the kingdom of Alwa in Central Sudan. British Museum press. pp 269 – 277.
- (28) الراوي حسن عبد الصادق الطيب المبارك، شريط رقم: م دأ/4367، الجريف شرق، 23/5/2009م.
- (29) مهدي الفحل، تاريخ وأصول العرب بالسودان، الخرطوم، 1976م، ص 22.
- (30) نعوم شقير، جغرافية وتاريخ السودان، دار عزة للنشر، الخرطوم، 2007م، ص ص 362-363.
- (31) محمد بن حمد بن الحاج الفائز، الجريف شرق منارة العلماء والصالحين، تحقيق، أبو القاسم عثمان الطيب خير، مطبعة جامعة الخرطوم، الخرطوم، 2005م، ص 150.
- (32) محمد النور بن ضيف الله، كتاب الطبقات في خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء في السودان، حققه: يوسف فضل حسن، دار التأليف والترجمة والنشر، جامعة الخرطوم، مطابع دار ومكتبة الهلال، ط4، الخرطوم، 1992م، ص 40.
- (33) محمد النور بن ضيف الله، كتاب الطبقات في خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء في السودان، مرجع سابق، ص ص 63-65.
- (34) حسبو الفزاري، أم دوم في زاكرة التاريخ، الجزء الثاني، شركة مطابع السودان للعملة، الخرطوم، 2009م، ص 1315.
- (35) الراوي حسن عباس، شريط رقم: م دأ/4340، الجريف شرق، 2009/6/6م.
- (36) الراوي حسن عباس، نفسه.
- (37) حسبو الفزاري، أم دوم في ذاكرة التاريخ، الجزء الثاني، مرجع سابق، ص 1315.
- (38) محمد بن حمد بن الحاج الفائز، الجريف شرق منارة العلماء والصالحين، مرجع سابق، ص 18.
- (39) محمد النور بن ضيف الله، كتاب الطبقات في خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء في السودان، مرجع سابق، ص 224.
- (40) الراوي أبو القاسم عثمان، شريط رقم: م دأ/4339، الجريف شرق، 2009/5/30م.

- (41) أبو القاسم عثمان، عقد الدر من ود حسونة إلى ود بدر، دار جامعة أم درمان الإسلامية للطباعة والنشر، أم درمان، 1982م، ص 72
- (42) محمد النور بن ضيف الله، مرجع سابق، ص 224.
- (43) محمد إبراهيم أبو سليم، تاريخ الخرطوم، مرجع سابق، ص 57.
- (44) محمد إبراهيم أبو سليم، نفسه، ص 30.
- (45) أحمد أحمد سيد أحمد، تاريخ مدينة الخرطوم تحت الحكم المصري (1820 - 1885م)، مرجع سابق، ص 107.
- (46) أحمد أحمد سيد أحمد، نفسه، ص 107.
- (47) محمد إبراهيم ابوسليم، تاريخ الخرطوم، مرجع سابق، ص ص 71-70.
- (48) محمد إبراهيم أبو سليم، نفسه، ص 67.
- (49) محمد إبراهيم أبو سليم، نفسه، ص 140.